

الإسرائيليون يواجهون الآن عواقب احتلال طال أمده

كتبه ليزا جولدمان | 28 أكتوبر, 2023



ترجمة وتحرير: نون بوست

في أحد أيام الربيع الدافئة في وقت سابق من هذا العام، تناولت الغداء في أحد مطاعم القدس الشرقية مع صديقة من الناصرة، وهي مواطنة فلسطينية تعمل في منظمة دولية لحقوق الإنسان، ولم نلتق منذ أن غادرت البلاد في عام 2011، عندما تحولت رحلة صحفية قصيرة إلى مصر الثورية إلى غياب دام عشر سنوات عن المنطقة التي أحببتها وكرهتها بنفس القدر من القوة، والآن، على طبق من الكبة النباتية التي أعدتها الطباخة الفلسطينية في المطعم، وهي شابة ديناميكية ذات شعر مجعد، أخبرتني صديقتي أن الكارثة قادمة.

وقالت: "إذا كنت تعتقدين أن الأمور كانت سيئة قبل 12 عامًا، عندما غادرت لأنك لم تعودي قادرة على تحمل الأمر أكثر، حسنًا، مقارنة باليوم، كان ذلك وقتًا ذهبيًا".

وقد تكرر موضوع المكان الذي يرتجف على حافة الكارثة في العديد من المحادثات خلال تلك الزيارة التي استمرت خمسة أسابيع إلى إسرائيل وفلسطين.

جلست صديقة صحافية من رام الله وهي تتناول القهوة في الفناء المظلل لمطعم فندق أميركان كولوني، وهي تصف، في شبه همس شديد، ما قالت إنها ثقافة خوف غير مسبوقه بين الفلسطينيين في المدينة؛ حيث قالت إن الأشخاص الذين عرفتهم منذ أكثر من 20 عامًا يرفضون الآن إجراء مقابلات معهم، لقد تم سحقهم، وعندما سألتها عن الاحتجاجات الشعبية المناهضة للاحتلال في قرى مثل بلعين والنبي صالح، حيث رأيت الكثير من عنف الجيش في أواخر العقد الأول من القرن الحادي والعشرين وأوائل العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، قالت لقد انتهت، سُحقت.

كان وجود الشرطة العسكرية العدوانية والمدججة بالسلاح في القدس الشرقية أثقل بكثير مما أتذكر، فرجال شرطة شبه عسكريين يرتدون ملابس سوداء، وأعينهم مخفية خلف نظارات شمس عاكسة، تهدر دراجاتهم النارية على طول شارع صلاح الدين، حاملين بنادق آلية، ويوقفون السيارات التي يبدو على سائقيها أنهم فلسطينيون، كانوا يتجولون في أزقة المدينة القديمة المسورة، ويعتقلون الناس بشكل عشوائي أثناء قيامهم بأعمالهم اليومية - حتى الأطفال الذين في طريقهم إلى المدرسة، حتى الدرجات الحجرية أمام باب العامود، التي كانت ذات يوم مكانًا شعبيًا لتجمع الشباب الذين يجلسون لساعات، ويأكلون بذور عباد الشمس ويشربون الكولا، أصبحت الآن مهجورة تمامًا، وفي الجزء العلوي من الدرج كان هناك مركز شرطة تم تشييده حديثًا على شكل دشمة بنوافذ غير شفافة.

في أحد أزقة الحي الإسلامي، استدرت عند زاوية ما بينما كان صبيان يهوديان، عمرهما 13 أو 14 عامًا، ويرتديان الزي المميز للمستوطنين المتدينين من اليمين المتطرف، يهاجمان صبيين فلسطينيين، عمرهما 9 أو 10 أعوام، كانا يركلان كرة القدم على الحائط، وبدأوا في لكمهم على رؤوسهم، وقام مرشد سياحي إسرائيلي علماني يقود مجموعة من الحجاج المسيحيين بسحب الصبية المستوطنين وطلب منهم التوقف عن ذلك، وصرخ أحد الصبية اليهود، الذي كان مغطى بالغبار من جراء التدحرج على الأرض، بشراسة: "سوف أبرحهم ضربًا!"، كان من الممكن أن تكون مجرد مشاجرة عادية بين الأولاد، إلا أنها في هذه الحالة كانت سياسية وخطيرة، لأن الشرطة وقفت دائمًا إلى جانب المستوطنين، فهذه وظيفتهم.

وقال أحد المعارف الفلسطينيين الذين يعيشون في مكان قريب إن عددًا متزايدًا من الإسرائيليين القوميين المتدينين انتقلوا للسكن خلال السنوات القليلة الماضية ويبدو أنهم ملتزمون بجعل حياة جيرانهم لا تطاق، وأضاف أنه في إحدى الحالات، قامت عائلة بحفر حفرة في أرضية شقتها التي احتلتها مؤخرًا في الطابق العلوي حتى تتمكن من التحديق في الأسرة الفلسطينية الموجودة بالأسفل ومضايقتها، وبينما كان يتحدث، شاهدت زوجين إسرائيليين شابين متدينين يمران، الرجل يدفع طفلًا صغيرًا نائمًا في عربة أطفال ويحمل طفلًا حديث الولادة في حمالة أطفال، وابتسمت زوجته، التي لفت حجابها على الطراز المرتبط باليمين القومي الديني، وهددت الطفل الصغير في العربة، بينما كان هناك مسدس آلي مدسوس في الجزء الخلفي من حزامه.

وفي نابلس، جلست إحدى صديقاتها في غرفة معيشتها النظيفة للغاية، وهي تسمح دموعها

وتصف المعارك الليلية بالأسلحة النارية التي كانت مسموعة في حي الطبقة المتوسطة الذي تسكن فيه؛ حيث تناوبت القوات الإسرائيلية الخاصة وقوات السلطة الفلسطينية في تنفيذ مدامات ضد مختلف الجماعات الفلسطينية المسلحة في المدينة السفلى، لتعتقل المشتبه بهم الذين خضعوا بعد ذلك لتحقيقات عنيفة.

وتحدثت عن الخوف الناتج عن العيش في مجتمع أصبح بمثابة منطقة نيران مفتوحة، فأعمال العنف المميتة التي ترتكب ضد المدنيين من قبل الجهات الحكومية الفلسطينية والإسرائيلية، أو من المستوطنين العنيفين الذين يعيشون في منطقة نابلس، والجهات التي تدعمها الدولة تحدث بانتظام، مع إفلاتهم من العقاب، والبيانات محبطة، لكن مقاطع الفيديو التي تمت مشاركتها في مجموعات واتساب، والتي رأيت بعضها، أسوأ.

ويُعد مشهد نقطة التفتيش عند المدخل الرئيسي لنابلس مثيلاً للتوتر؛ حيث يجلس جنود يرتدون معدات قتالية خلف بنادق آلية مستنديين على أكياس رمل، ويعبر زوج صديقي نقطة التفتيش تلك عندما يذهب بسيارته لزيارة عائلته، والمستوطنون الذين يعيشون بالقرب من نابلس هم من النوع العنيف والعنصري، وقد شجعتهم بشكل خاص حكومة اليمين المتطرف، لذلك يسود هناك مناخ يكاد يكون خانقاً من الخوف.

لم تسمح صديقي لابنها البالغ من العمر 10 أعوام بأخذ مسدس بلاستيكي ذو الألوان الزاهية عندما أخذه والده لزيارة أبناء عمومته في القرية؛ فقد يظن الجنود عند نقطة التفتيش أنه سلاح حقيقي، ويطلقون النار أولاً ويزعمون أنهم اعتقدوا لاحقاً أنه سلاح فتاك، ولن يكون هناك أي عواقب تقريباً تقع على الجنود.

وبينما كنا نتحدث، كنا نسمع ابنها يلعب لعبة "ماين كرافت" في غرفة نومه، ويصرخ بتعليمات باللغة الإنجليزية في وجه صديق افتراضي يعيش في بلغراد، فركت عينيها مرة أخرى وقالت: "إنهم يسمحون لك بالحصول على ما يكفي فقط حتى يكون لديك ما تخسره"، لقد أرادت هي وزوجها المغادرة والهجرة، أرادوا أن يأخذوا ابنهم الذي تمت تربيته بعناية، مع ملاءات سريريه المرسوم عليها "سبايدر مان"، و"ماين كرافت"، ودروس كرة القدم والموسيقى، ولغته الإنجليزية الطليقة، إلى مكان أكثر أماناً.

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، كنت أقف في الشرفة لأشرب الشاي عندما خرج ابن صديقي، يفرح النوم من عينيه، ولف ذراعيه حول خصري ليعانقني ووقفنا معاً لبضع دقائق، ننظر إلى حركة المرور في الصباح الباكر، قلت: لا بد أنه كان هناك حفل زفاف في الليلة السابقة، لقد سمعت مفرقات نارية.

قال: "أوه لا، كان هذا إطلاق نار، الألعاب النارية غير قانونية في نابلس".

وفي صباح اليوم الثاني لي في تل أبيب، كنت في حالة من الشرود بسبب مزيج من اضطراب الرحلات الجوية الطويلة والصدمة الثقافية العكسية، مشيت إلى مقهى في الزاوية وطلبت أول كوب قهوة

من بين ثلاثة أكواب إسبرسو شربتها، وبينما أشربه كنت جالسة على طاولة مشتركة مع جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص بي أمامي، وأستمع إلى مقتطفات من المحادثات من الطاولات القريبة.

قال لي شاب باللغة الإنجليزية: “معذرة، هل هذا القعد مشغول؟” ابتسمتُ وأشرتُ إلى أنه يمكن أن يجلس في المكان الفارغ بجواري، بعد بضع دقائق، ألقى نظرة سريعة عليه فرأيتُ أنه كان يقرأ رواية “النصف المختفي”، وهي رواية تتحدث عن المعاناة النفسية التي يتعرض لها امرأة سوداء في الولايات المتحدة البيضاء المعاصرة، تحدثتُ معه بالعبرية، قائلة إنني سمعت أن الكتاب جيد جدًا وسألته إذا كان يستمتع به، فأجاب باللغة الإنجليزية “أنا آسف، أنا لا أتحدث العبرية.”، كان الوشم العصري على ساعديه، وقميصه الأسود النحيف، وبنطاله الجينز، وتصفيفة شعره، كلها من سمات تل أبيب العصرية، لدرجة أنني فوجئت قليلاً وسألته من أين هو، فأجاب: “نابلس”، رفعت حاجبي باستغراب، كيف؟!

وكان طارق، والذي ليس اسمه الحقيقي، قد علم عبر مجموعة على فيس بوك عن مبادرة خاصة لتوفير التدريب في شركات التكنولوجيا الفائقة الإسرائيلية للخريجين الفلسطينيين من جامعات الضفة الغربية، وتقدم بطلب وتم قبوله وتمكن من البقاء بشكل قانوني في تل أبيب لأكثر من عامين، واهتمت المنظمة غير الحكومية بتجديد تصريحه، وتمكن من الاستمرار في العمل بعقود قصيرة الأجل في العديد من شركات التكنولوجيا المتقدمة، بفضل لغته الإنجليزية المثالية (كما قال، لم يكن طارق بحاجة إلى اللغة العبرية في تل أبيب العلمانية الدنيوية، بين إخوان التكنولوجيا والرحالة الرقميين)، كان يتقاسم شقة مع إسرائيليين ويقضي معظم ليلائه في النوادي، وقال إنه أحب تل أبيب، وقد اكتشف كيفية استيعاب الملابس المناسبة ولغة الجسد المناسبة، وقال، وهو يعيد صياغة مقتطف من الكتاب الذي كان يقرأه في المقهى: “تعلمت أنه إذا تصرف باللون الأبيض، فإن الناس يعاملونك على أنك أبيض”.

وفي اجتماع لاحق، اعترف طارق، في محادثة عاطفية استمرت ساعتين، أن الصورة المبهجة التي رسمها عن الاستيعاب السهل لم تكن مكتملة، لقد شعر في تل أبيب بالحرية الشديدة وبالخوف الشديد، لقد كان مرعوبًا من التواجد في المكان الخطأ في الوقت الخطأ، ومن أن توقفه الشرطة وتطلب منه بطاقة هويته، لقد كان غاضبًا لأن البواب في ملهى ليلي شهير رفض إدخاله بناءً على اسمه؛ على الرغم من أن أصدقائه الإسرائيليين، كما أضاف، ردوا على هذا الحادث من خلال إطلاق حملة على فيس بوك لتشويه سمعة المالك، وهددوا بمقاطعة النادي حتى تراجع واعتذر على مضض، ولكن حتى مع أصدقائه الداعمين له والسماح له بالتواجد في إسرائيل، شعر طارق أن وجوده في تل أبيب كان محفوفًا بالمخاطر، فعدد قليل من الشركات تقوم بتوظيف فلسطيني من الضفة الغربية - قال إن المقابلات سارت بشكل جيد حتى أدركت الموارد البشرية حجم الأعمال الورقية المطلوبة - لذلك اضطر للعمل بعقود قصيرة الأجل، دون أي من المزايا أو الحماية التي يحق للمواطن الحصول عليها، ويمكن سحب تصريحه في أي وقت، دون إشعار أو تفسير، ولم يكن بمقدوره مواجهة العودة إلى نابلس المحافظة المحتلة بعد تل أبيب الليبرالية الحرة.

ولكن عندما عرضتُ على طارق أن يركب سيارة أجرة لزيارة عائلته، وافق، لقد أنقذه ذلك من تجربة

السفر المرهقة بوسائل النقل العام وهو فلسطيني، مع الانتظار لفترات طويلة عند نقاط التفتيش وخطر الاعتقال التعسفي، استأجرتُ سائقًا فلسطينيًا من القدس الشرقية لينقلنا من تل أبيب إلى نابلس ثم يعود مرة أخرى، كانت رحلة باهظة الثمن، ولكنها تستحق العناء، مع لوحات الترخيص الإسرائيلية الصفراء، تم التلويح لنا عبر نقاط التفتيش الصغيرة، ولم يتم استجوابنا إلا بشكل روتيني عند الحاجز الرئيسي، وسمح لنا بالقيادة على الطرق المعبدة بشكل أفضل والتي كانت محظورة على السائقين الذين يحملون لوحات ترخيص السلطة الفلسطينية ذات اللونين الأخضر والأبيض، رحلة الذهاب والإياب، والتي تستغرق حوالي 90 دقيقة ذهابًا وإيابًا، كلفتني 1300 شيكل، أو 320 دولارًا، وعلى النقيض من ذلك، تبلغ تكلفة رحلة طيران إيزي جيت ذهابًا وإيابًا من مطار بن غوريون في تل أبيب إلى مطار جاتويك في لندن أقل من 180 دولارًا.

وتبين أن وجود طارق كان أمرًا جيدًا جدًا، لأننا كنا بحاجة إلى معرفته البشرية بالملاحة عندما رفض نظام الملاحة “ويز” توجيهنا لدخول نابلس، وعندما اقتربنا من المدينة، حذرنا بالعبرية والعربية: “خطر! أنت تدخل منطقة محظورة! عد أدراجك الآن! خطر!”، وصادف أن هذا كان بالقرب من المكان الذي نفذ فيه المستوطنون الإسرائيليون العنيفون مذبحة قبل بضعة أسابيع فقط، حيث هاجموا الفلسطينيين وأضرموا النار في منازلهم بينما وقف الجنود يشاهدون.

مررنا عبر نقطة التفتيش، ورأينا جنودًا يبدو عليهم التوتر، وكانوا يستلقون على بطونهم خلف أكياس الرمل، وكانت بنادقهم الآلية موجهة نحو السيارات المارة، كان الشارع في أسفل نابلس مليئًا بمرائب السيارات التي كانت تحمل لافتات باللغتين العربية والعبرية تعلن عن خدمات تصليح السيارات، ذات مرة، في “الزمن الذهبي” الذي أشارت إليه صديقتي في المطعم في القدس الشرقية، كان الإسرائيليون يقودون سياراتهم هنا لإصلاح سياراتهم، لأن الخدمات في الأراضي المحتلة كانت أرخص بكثير مما كانت عليه في إسرائيل، وأثناء انتظارهم، كانوا يأكلون الكنافة الشهيرة في المدينة، وهي حلوى بالجبن الحلو.

بالنسبة لي، كانت زيارة نابلس ممتعة؛ حيث تتميز المدينة الجبلية المتعرجة بهندسة معمارية جميلة وبازار قديم وطعام لذيذ ومناظر جذابة، إن الجلوس على شرفة مطلّة على المدينة عند الغسق، حيث ينطلق الأذان من عشرات المساجد ويتردد صداه من التلال، تجربة رومانسية، لكنني يمكنني المغادرة بعد تناول الطعام اللذيذ والنظر إلى المنظر الجميل، أما بالنسبة لأصدقائي، فالاحتلال موجود في كل مكان.

عندما أعجبني أحد شوارع المدينة القديمة، أخبروني أن القوات الإسرائيلية قتلت 17 فلسطينيًا هناك في غارة، وعندما دعوا صديقة للانضمام إلينا في مقهى بالقرب من أنقاض المدرج الروماني، أرسلت رسالة نصية مفادها أنها ستتأخر لأنها كانت عالقة عند نقطة تفتيش تابعة للجيش، وعندما أعجبتُ بجمال الآثار الرومانية، قالوا إنهم يعلمون أن الجيش سوف يصادر الموقع قريبًا، مما يحرمهم من الوصول إلى آخر مكان للترفيه في الهواء الطلق، وعندما أومأْتُ نحو المناظر الطبيعية للمدرجات المليئة بالقرى الخلابة، أشاروا إلى قاعدة الجيش الإسرائيلي ونقطة التنصت والمستوطنات على قمة التل، لقد كان من السهل فهم سبب شعورهم بأنهم محاصرون ومجردون من إنسانيتهم.

وعندما عدتُ إلى تل أبيب، أخبرت صديقتي كاتيا (اسم مستعار)، وهي محللة سياسية محترمة، عن مستوى العنف واليأس الذي رأيته في الضفة الغربية والقدس، لقد افترضت أن الوضع، الذي كان لا يمكن الدفاع عنه دائماً ولكنه استمر بالقوة والإكراه، أصبح الآن ببساطة غير قابل للاستمرار، لقد كان مناخ اليأس والغضب - ضد الجيش الإسرائيلي، والمستوطنين، والسلطة الفلسطينية القمعية والتي فقدت مصداقيتها تماماً - قابلاً للاشتعال، أضف إلى ذلك اللامبالاة الظاهرة من جانب الزعماء العرب والعالم الذي رحب باللاجئين الأوكرانيين بينما أغلق أبوابه في وجه الفلسطينيين، وبذلك تكون قد أشعلت الفتيل.

لقد قلقلنا ونظرنا حول الوضع الذي كانت تعرفه جيداً، ولكننا لم نتحدث قط تقريباً عن غزة، المشكلة الأكثر استعصاءً على الحل على الإطلاق، على الرغم من أن الحروب الدورية، أو العمليات العسكرية، وما يترتب عليها من خسائر كبيرة في صفوف المدنيين، والأطفال القتلى، كانت مؤلمة عند مشاهدتها، وفي الواقع، فقد سقط صاروخان من صواريخ حماس بالقرب من تل أبيب قبل بضعة أيام فقط.

ولكن لم يكن لدينا أي وسيلة لمعرفة الوضع في غزة بشكل مباشر، لقد كان الحصول على تصريح لعبور نقطة تفتيش دراكونيان في إيريز أمراً معقداً بالنسبة لأي شخص، لكنه كان مستحيلاً بالنسبة للإسرائيليين، لم أذهب إلى هناك منذ عام 2006، عندما منع الجيش الوصول على المواطنين الإسرائيليين، حتى الصحفيين الذين يحملون جوازات سفر أجنبية، في بعض الأحيان، أثناء حديثي مع الأشخاص الذين أيدوا نموذج الكونفدرالية بين إسرائيل وفلسطين، كنت أسأل كيف تتناسب غزة مع الصورة، وكان الرد عبارة عن هزة كتف غير مريحة والتأكيد على إمكانية التوصل إلى شيء ما، مؤكدين لي أن التفاصيل يمكن أن تنتظر.

كنت أنا وكاتيا نجري هذه المحادثة بينما كنا نجلس على طاولة خارجية تحت أشعة الشمس الدافئة، محاطين بأشخاص جذابين ومريحين يبدو أن لديهم كل الوقت في العالم لتناول القهوة على مهل بعد ظهر أحد أيام الأسبوع، ومر أحد المعارف المشتركين مع ابنته البالغة من العمر 4 سنوات على كتفيه وتوقف لإلقاء التحية، كان يعيش في مكان قريب مع شريكته، ويقوم بتدريس قانون حقوق الإنسان، كانت الابنة، التي كانت تتمتع بتجديدات شعر أشقر لامعة وترتدي فستاناً جميلاً يناسب عينيها الزرقاوين، وترتاد روضة أطفال حيث تدرس اللغة الإنجليزية، لقد كانت بالفعل ثنائية اللغة، كما تفاخر، وقد لاحظتُ أن كلمة "ثنائي اللغة" لا تشير إلى العربية والعبرية.

سأل بينما لوحث الفتاة الصغيرة مودعة: "هل سأراكِ في مظاهرة السبت؟"، أكدت له أنني سأكون هناك، بطريقة أو بأخرى، تمكن الناس من العثور على بعضهم البعض، من بين عشرات الآلاف من المتظاهرين، في ما أصبح بحكم الواقع الحدث الاجتماعي الأكثر أهمية في الأسبوع: الاحتجاج الأسبوعي ضد حكومة نتنياهو.

التفتُ إلى كاتيا وسألتها عما سيحدث لهذا المكان الذي يتسم بالتناقضات الجذرية وعدم اليقين العميق، في تل أبيب، حيث يعيش الناس بسعادة في مدينة مشمسة على البحر الأبيض المتوسط مليئة بأشخاص يرتدون أحدث صيحات الموضة والفنانين والمثقفين والأثرياء في مجال التكنولوجيا

الذين قسموا وقتهم بين وادي السيليكون وعواصم أوروبا والشقق التي تبلغ قيمتها ملايين الدولارات في الحي الذي كنت أدفع فيه قبل 20 عامًا إيجارًا شهريًا بقيمة 500 دولار فقط لشقة غير مجددة ولكنها فسيحة ومليئة بالضوء على طراز باوهاوس، أما الآن، فإن بناء المجمعات السكنية الفاخرة لا يكاد يتمكن من مواكبة الطلب.

كان كل هذا الازدهار والثقة موجودين حق عندما كان الائتلاف الحاكم اليميني المتطرف الذي ضم فاشيين وقحين بلا خجل، على وشك إصدار تشريع من شأنه أن يجعل القضاء المستقل خاضعًا فعليًا للسلطة التشريعية، بينما يتم تمويل وتنظيم حركة "الديمقراطية" المعارضة من قبل كبار المديرين التنفيذيين للتكنولوجيا الفائقة الذين يبدون غير مباليين تمامًا بحقوق الفلسطينيين الذين يعيشون تحت احتلال عسكري يبلغ من العمر 56 عامًا، ربما لأن العديد منهم خدموا في وحدات الاستخبارات العسكرية النخبوية.

ومع ذلك؛ فإن الضفة الغربية وغزة تقعان على مسافة أقل من ساعة واحدة بالسيارة، في اتجاهين متعاكسين، من المسرات الهنيئة للمقاهي، والمعارض الفنية، والنوادي، والشواطئ التي تملكها تل أبيب.

كما أن قادة الحركة الديمقراطية لم يتناولوا الحقيقة التي لا يمكن إنكارها، وهي أنه على الرغم من التزام المتظاهرين، الذين استمروا في الظهور، أسبوعًا بعد أسبوع، فشلت الحركة في منع الحكومة من متابعة خطتها لإنهاء استقلال القضاء وبالتالي حق إسرائيل في تسمية نفسها بـ "الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط".

وفي الوقت نفسه، كانت حكومة نتنياهو اليمينية المتطرفة ثابتة في السلطة بقوة ومنيعة في مواجهة الاحتجاجات، فلم يكن هناك سوى أمرين يمكن أن يوقفوا التشريع: العنف، الذي قد يكون كارثيًا، أو الانتخابات، التي لن يضطر نتنياهو إلى الدعوة إليها ما لم ينهار ائتلافه، ولن ينهار ائتلافه إلا إذا نكث بوعده بالإصلاح القضائي.

قالت كاتيا: لا أعرف ماذا سيحدث، مستوى عدم اليقين مرتفع للغاية لدرجة أن الناس يشعرون بالذعر.

كانت تل أبيب تمر بعملية تجديد جذرية محمومة قارنها صديق شديد الانتباه بباريس في عهد هوسمان؛ حيث تم حفر الشوارع والساحات الرئيسية بالكامل لإنشاء شبكة سكك حديدية خفيفة داخل المدن ونظام قطارات تحت الأرض؛ تسبب العمل في اختناقات مرورية هائلة، ذكرتني ببانكوك أو القاهرة، كان كل مبنى في المدينة، من ضواحي الحدائق في الشمال إلى الأحياء الفقيرة السابقة "المظورة" في الجنوب، موطئًا لمشروع بناء سكني أو تجاري كبير واحد على الأقل، فمن صباح الأحد حتى بعد ظهر الجمعة، عندما جلب السبت اليهودي 25 ساعة من الهدوء، كانت المدينة تهتز بأصوات آلات ثقب الصخور، والشاحنات الثقيلة، والجرافات، والحفارات، والمطارق.

خلال فترة من عدم اليقين العميق المثير للقلق بشأن جدوى المؤسسات الأساسية للدولة، كانت

بلدية تل أبيب تقوم بالحفر وبناء البنية التحتية لمدينة المستقبل.

كانت المظاهرات الديمقراطية ليلة السبت تدخل أسبوعها العشرين، بدا الحضور مهمًا، على الرغم من أن أقلية صغيرة فقط من الإسرائيليين بدوا مدركين ولو عن بعد للتنافر المعرفي في هتاف “ديمقراطية” احتجاجًا على خطة نتنياهو لإنهاء استقلال القضاء، حتى مع استمرار الجيش الذي خدموا فيه جميعًا في الحفاظ على نظام يحرم ما يقرب من 5 ملايين فلسطيني من حقوقهم المدنية الأساسية، وقفت على بعد حوالي 30 مترًا من حشد المتظاهرين الذين يلوحون بالأعلام الإسرائيلية ويهتفون “الديمقراطية!”، ويغنون النشيد الوطني، كانت الكتلة المناهضة للاحتلال - بضع مئات من اليساريين الملتزمين الذين لوحوا بالأعلام الفلسطينية، وهتفوا “حرية!” بالعربية، ولافتات مرفوعة كتب عليها باللغتين العبرية والعربية: “لا ديمقراطية مع الاحتلال”.

التقطتُ صورة لهم وأرسلتها إلى صديقي في نابلس، وأردت أن أظهر لها أنه في قلب تل أبيب، وتحت ظل وزارة الدفاع، كان هناك إسرائيليون يهتمون بالفلسطينيين، وبعد حوالي ساعة، أرسلت لي رسالة نصية، “شكرا لك على المشاركة.”، لم تكتب “حبيبي”، ولا رموز تعبيرية لقلبة، ولا قلوب حمراء، أدركت من رد فعلها الهادئ أنها لا تريد تعاطف بعض الناشطين اليساريين ذوي النوايا الحسنة الذين رأوا فيها ضحية، إنها امرأة متعلمة من الطبقة المتوسطة، وأعتقد أنها أرادت أن يُنظر إليها على حقيقتها، باعتبارها مساوية لهم، وينبغي أن تتمتع بنفس الحقوق الأساسية التي يتمتعون بها.

خلال أسبوعي الأخير في تل أبيب، اندلعت فضيحة باللغة العبرية على وسائل التواصل الاجتماعي؛ حيث نشرت راوية أبو ربيعة، وهي أكاديمية بدوية وشخصية معروفة في المجتمع المدني الإسرائيلي، بيانًا طويلًا في مجموعة واتساب لنشطاء المجتمع المدني؛ وانتشر على فيس بوك حيث قرأته، وقد كتبت أن منظمي الاحتجاج في تل أبيب دعوها للتحدث في مظاهرة ليلة السبت، وبعد أن قبلت الدعوة، اتصلوا بها وأخبروها أنه يمكنها التحدث عن أي شيء، باستثناء الاحتلال، وقالت لهم غاضبة إنها ترفض الخضوع للرقابة وبالتالي لن تتحدث في المظاهرة.

اتصلتُ براوية وأكدت أن الأحداث قد حدثت كما هو مكتوب في المنشور الذي انتشر على وسائل التواصل الاجتماعي، سألتها كيف فسرت الحادث، وأجابت: “هذا الحادث يوضح أن المتظاهرين يريدون الحقوق والديمقراطية لليهود الأشكناز وهذا كل شيء”.

كانت رحلتي في صباح اليوم التالي، وأول شيء رأيته عند دخولي مطار بن غوريون هو مكتب تسجيل الوصول لخطوط طيران الإمارات، وعلى الحائط أعلاه كان هناك إعلان يعرض معدلات رهن عقاري منخفضة للضباط العاملين في الجيش، وفي الأسواق الحرة، استعرضت نساء يرتدين العباءات والنقاب مكياج ديور وعطور برادا، وطيار يرتدي بطاقة هوية على حبل مختوم بعبارة “إير كايرو” سأل مندوب مبيعات عن سعر سماعات إير بودز لجهاز الآيفون الخاص به، ووقف رجلان يرتديان الدشداشة والغترة البيضاء الناصعة أمامي في خط الأمن السريع وتم التلويح لهما بالمرور، لم يكن من الممكن تصور هذه المشاهد قبل عقد من الزمن، لقد شعرتُ بالذهول والتسلية وعدم الارتياح عندما رأيتُ أن الحكومة الإسرائيلية قد حققت على ما يبدو حلمها في تطبيع العلاقات مع العالم العربي

وبعد أسبوع، نشرت راوية أبو ربيعة على فيس بوك ما تعرضت له من إذلال المعاملة «الأمنية» الكاملة في المطار؛ حيث تم أخذها جانبًا للاستجواب بينما قام موظفو المطار بإزالة محتويات حقيبتها ورميها في الحقيبة مرة أخرى قبل السماح لها بالسفر لحضور مؤتمرها الأكاديمي في أوروبا.

لا بد أن ينفجر الوضع، هذا ما قلته لأصدقائي الإسرائيليين في مونتريال عندما ناقشنا رحلتي، لقد افترضت أن أعمال العنف ستبدأ في الضفة الغربية، حيث تؤدي وفاة رئيس السلطة الفلسطينية الضعيف والمكروه على نطاق واسع، محمود عباس، إلى صراع على السلطة بين مختلف الفصائل المسلحة، وسيستخدم الجيش ذلك كذريعة لإعادة احتلال المنطقة (أ)، الأمر الذي من شأنه أن يطلق العنان للعنف المعمم الذي قد يمتد إلى إسرائيل، ومن ثم الفوضى.

ولكنني نسيْتُ أمر غزة.

المصدر: [نيو لاينز](#)

رابط المقال : <https://www.noonpost.com/177110>